القصد في اعمال الناس امر اساسي في علم النفس

تتمة خطبة الاستاذ مكدوغل

اني اجتزىء عما تقدم (في مقتطف يناير) بالتعليل الذي ذكرتهُ وانتقل الى الامر الثالث من موضوعي اثباتاً للرأي الذي جاسرت على ابدائهِ

منذ ثلاثين سنة الى اربعين حينما شرعتُ في درس العلوم الطبيعية لم يكن احد يستطيع ان يجاهر بان في طبيعة الانسان دليلاً قاطعاً على وجود القصد فيهِ ما لم يكن على جانب كبير من الشجاعة الادبية . لان المذهب المادي كان لا يزال في اوجهِ . كان العصر عصر سبنسر وهكسلي وكليفورد وتندل ولنج ووسمان وثرورن وبايين وكان العالم بكل ما فيهِ من الاحياء يمثل امامنا كآلة ميكانيكية دقيقة مضبوطة تمثيلاً لا يخامرهُ ريب حتى يرى المرء نفسهُ بين عاملين متناقضين الاول ما يقررهُ العلم ونظام العالم الميكانيكي والثاني ما يقولهُ التقليد والدين والاوهام والخرافات

ولكن لقد تغيرت الحال الآن تغيراً عظيماً . بل في ذلك العصر نفسهِ قام جماعة من كبار علماء الطبيعة وقالوا ان مبادىء العلم الطبيعي لا تكفي لتفسير مناحي الحياة الانسانية. والآن قد اضيف الى صوتهم اصوات اخرى كثيرة يتعذر على البيولوجي ان لا يسمعها ولو كان اصم. فان اينشتين وادنجتون وصودي وكثيرين غيرهم يكررون تحذير مكسول وكلفن وبوينكاريه ورايلي[1] . والعالم الطبيعي المؤلف من جواهر فردة صلبة خالدة واثير شامل الكون — هذا العالم الميكانيكي الصرف صار مزيجاً من دقائق وافعال تتغير وتبدو وتمحى كأنها الصور في الكليدسكوب (منظار الصور الجميلة) فان الفيلسوف (السيكولوجي) الذي يعتقد بمقدرة الانسان لا حاجة بهِ الى البحث عن كيف يستطيع العقل ان يحول الجوهر الفرد عن المجرى المقرر لهُ لان الجوهر الفرد قد انتفى الآن وعرفنا ان المادة ليست الا قوة وما من احد يعلم ماهية القوة وغاية ما نعلمهُ انها قابلية التغير من حالة الى اخرى

(١) المقتطف . لان هؤلاء كانوا يقولون ان الفلسفة المادية لا تكفي لتعليل امور الكون

فان ما كان علماء الفسيولوجيا يقولونهُ في القرن التاسع عشر من ان الافعال الحيوية تجري قسراً على قواعد مقررة نراهُ الآن آخذاً في الزوال على نسبة ما عرف من بناء اجسام الاحياء ومقدرتها على الاستعاضة عما تفقدهُ وتنظيم نفسها وتوليد نسلها واصلاح ما يقع فيها من النقص والخلل

ففي علم الاحياء (البيولوجيا) نرى مذهب داروين الجديد عاجزاً عن تعليل مسائل النشوء كاصل التباين والتحوُّل الفجائي واختلاف الطبائع واختصاصها وتقدم الاحياء في تطبيق نفسها على ما يحيط بها تطبيقاً معقولاً وتسلُّط العقل في الدرجات الاخيرة من النشوء. والادلة على وجود القصد حتى في الطوائف السفلى من الاحياء والجمع بين امرين متناقضين حسب الظاهر وهما استمرار الانواع على حالة واحدة وكون افرادها سهلة الانطباع بما يعرض عليها لما يدل على ان فيها شيئاً راسخاً في طبيعتها يحملها على هذا الانطباع

كل هذه الاعتبارات تشدد عزائمنا على حسبان السيكولوجيا علماً قائماً برأسهِ حريًّا بان يختار المبادىء الاساسية التي يقصدها ويحققها ويحددها. ويجب ان لا نرى صعوبة في حسبان انفسنا قادرين على تحديد ماهية الانسان وعلى القول بان معرفتنا لهُ اتم من معرفتنا لغيرهِ من كل ما في الكون. وبدلاً من ان نعتمد على المعاني المجردة التي نجدها في علم الطبيعة ونصوغ منها شبحاً آليًّا نمثل بهِ الانسان في علمنا لنشرع في حسبان الانسان كما يظهر لنا كائناً مفكراً يسعى ليبلغ الاغراض التي يتوخاها وليحقق الاماني التي يتمناها وهو في ذلك يفوز مرة ويفشل مراراً ولكنهُ لا ينفكُّ عن السعي ما دام حيًّا. يجب ان نجرب لكي نفهم تاريخ ما في الانسان من الميل الى السعي كما يظهر هذا الميل في الفرد وفي النوع كلهِ. لكي نفهم كيف نعرف وكيف نتصوَّر وكيف نفكر وكيف نحكم وكيف نستدل لان هذه الامور تساعدنا في سعينا الى نيل الاغراض التي نتوخاها

وعلينا ان نتوسع في هذه المبادىء وتطبيقها على انواع الحيوانات الدنيا المتباينة في درجات ارتقائها واذا فعلنا ذلك وعرفنا طبائع ادناها وابسطها فقد نشرع في فهم فسيولوجية الاحياء العليا بوجه عام. وبدلاً من وصف الطائفة من الناس بتشبيهها بجسم حيوان كما كان العلماء يفعلون في القرن التاسع عشر نجد انهُ اجدر بنا ان نشبه الحيوان الراقي بجماعة من الناس حسنة الانتظام تستطيع ان تبقى على انتظامها ولو

عارضتها الوف من المشاكل لان في كل عضو من اعضائها قوى محدودة لمقابلة الطوارىء فيعزم دائماً على بلوغ الغرض الذي تتوخّاهُ طبيعتهُ وتطلبهُ علاقاتهُ بابناء جنسهِ

هنا يطرق مسامعي صوت بيكولوجي غير جسور يقول لي « ان ما تقولهُ ليس من العلم في شيء لانك خالفت مبدأ العلوم الاساسي وهو ان كل الحوادث اضطرارية مقدورة وان العلل الميكانيكية متسلطة على الكون كلهِ». فاجيبهُ ان يعتصم بالشجاعة مؤكداً لهُ ان ليس كل ما قالهُ الفلاسفة قرين الصحة ولو اجمعوا عليهِ كلهم. وتكرار القول مراراً لا يجعلهُ صحيحاً

حسبنا ان نقضي الآن عما وراء الطبيعة ونشرع في امرين عُرفا بالاختبار ولا خلاف فيهما الاول ان الانسان يستنبط اشياء جديدة كصورة يتخيلها ويرسمها وكتاب يفكّر فيهِ ويؤلفهُ وقاعدة يتصورها ويضعها. والثاني انهُ اذا رغب الانسان العادي في شيء وعقد قلبهُ عليهِ وحسب انهُ اذا فعل بعض الافعال وصل الى ذلك الشيء تراهُ يفعلها مطاوعة لرغبتهِ وحسبانهِ

هنا استنتاج علمي يمكننا ان نعتمد عليهِ ونبتدىء منهُ غير مقيدين بمسائل لا نستطيع حلها كقولنا كيف يستطيع الوجدان تحويل دقيقة من دقائق الدماغ. فانهُ لا داعي لحل هذه المسائل وجعل هذا الحل اساساً لعلم النفس المبني على القصد ولاسيما لانهُ من الراجح الذي يكاد يكون محققاً اننا بتقدم العلم يتضح لنا ان مثال هذه المسائل التي يستحيل حلها قد ذكرت على هذه الصورة خطأ وكان الواجب ان لا تذكر كذلك

يجب ان لا نحرم انفسنا من وضع علم للنفس يفيدنا ويفيد اخواننا المشتغلين معنا في العلوم الاجتماعية بانين هذا الحرمان على عجزنا عن حل اعوص المسائل. فان العالم الطبيعي لا يقف موقف الحيرة اذا سألتهُ مسائل مثل ما تقدم كقولك لهُ كيف تجذب دقيقة دقيقة اخرى او تدفعها او ما هي حقيقة الالفة الكيماوية او ما هي الكهربائية. ولا يبطل البحث لان آراءهُ وفروضهُ التي يبنى عليها احكامهُ لا تزال في معرض الشك. ولا يلتفت الى فرع آخر من فروع العلم ليقتبس منهُ فروضاً وآراء تعد من الفروض والآراء القيمة. فلنحذُ حذوهُ

لنجمع حقائق الطبيعة الانسانية من البحث الداخلي في انفسنا والخارجي في غيرنا ولنبن استدلالنا على ما نراهُ من هذه الحقائق وارتباطها بعضها ببعض واضعين

علم النفس حسب طريقتنا لتقل غير هيّابين ولا محاذرين ان علم النفس وهو اكثر العلوم ارتباطاً بالماديات غير مضطرّ ان يسلم بالقضايا المجردة مهما كان نوعها بناء على انها امور مستنتجة من اوليات ثابتة كما ان العلوم الطبيعية لم تبنَ على مقدمات مجردة يقينية لا ريب فيها

من المحتمل ان يفضي البحث برجال العلم الى الاتفاق على ان في الكون نوعين من الافعال الفعل الميكانيكي والفعل العقلي اي المقصود او الفعل الجاري على ما قُدّر لهُ اصلاً والفعل الذي يخلق ويجدد عن قصد او الفعل الطبيعي والفعل العقلي . وقد نعرف اخيراً ان هذين الفعلين من قبيل واحد واحد هما صورة ظاهرة للآخر ولكننا حسبناهما اثنين مختلفين بسبب ما في فهمنا من القصور والنقص . اما الآن فلا نستطيع تقرير ذلك ولا نفيهُ . ولكن اذا جاز لي ان اتنبأ بما ينتهي اليهِ العلم في امر هذين النوعين من الافعال فاني ميال الى الاخذ برأي اكبر العقول التي بحثت في كل العصور وهو ان الافعال المقصودة التي هي من مظاهر العقل هي الافعال الحقيقية وان الافعال الطبيعية او الآلية انما هي من مظاهرها

المغاث والقلقل

Glossostemon Bruguieri & Hibiscus Cannabinus

المغاث والقلقل نباتان حار في امرهما اطباء العرب والذين اخذوا عنهم من الافرنج . والمعروف عن المغاث في ايامنا انهُ نبات تسحق عروقهُ وتطبخ كما يطبخ السحلب ولكن بالماء لا بالحليب وهو مشهور في مصر ولا يعرفهُ بهذا الاسم الا اهل مصر وتجار بغداد الذين يرسلونهُ الى مصر ولا يستعملهُ غير المصريين في ما اعلم . اما اسمهُ المعروف بهِ عند عامة البغاددة فهو « عرب قوزي » اي جوز العرب بلغة التركمان الذين في كركوك وتلك النواحي سموهُ بذلك لان بعض العراقيين يأكلون حبهُ كما يؤكل الحمص المملح

وقد ورد ذكر المغاث في كثير من المؤلفات العربية على ان الذين ذكروهُ لم يروا منهُ على ما يظهر سوى العروق او الحب لذلك اخطأوا في وصفهِ او لم يصفوهُ لما اقتصروا على ذكر خواصهِ كما فعل ابن البيطار فانهُ كان كثير التدقيق في وصف النباتات التي رآها لذلك لم يصف المغاث لانهُ لم يرهُ